مقدمة كتاب (دراسة في السيرة)

للدكتور عماد الدين خليل

هذا كتاب دراسي (أكاديمي) أُريد منه بالدرجة الأولى عرض وتحليل الهيكل الاساسي المتفق عليه لأحداث سيرة الرسول(صلى الله عليه وسلم)، وتوزيع مساحات البحث بشكل متكافىء على كافة جوانب الموضوع.. وهذا الكتاب يجيء ثمرة طبيعية لتدريس هذه المادة في كلية الآداب مايزيد على الست سنوات، الأمر الذي أتاح لي احتكاكا علمياً مباشراً بالموضوع، ودفعني للبحث عن أشد الصور المنهجية ملائمة لتوصيل المادة للطالب الجامعي، وتمكينه من الاحاطة بوحداتها الأساسية إحاطة علمية مركزة ومتوازنة، ترفض الجنوح صوب الخيال القصصي الإسرائيلي، والتهويل الأسطوري، أو التطرف - في الوقت ذاته - صوب النظرة المادية التي تقتل في السيرة روحها وتطمس على شخصيتها.

كما ان هذه الدراسة تسعى لتجاوز منطق الدفاع - قدر الإمكان - لكي تجعل الحقائق المجردة نفسها تشكل في ذهن الدارس النسق الحقيقي للسيرة، وتدفع كل ما علق بها في الماضي والحاضر من تهاويل واضافات ومفتريات ما كان لها أنَّ تصمد أمام (الواقعة) التاريخية نفسها، وليس غير الواقعة التاريخية حكماً وقاضياً. ومن ثم كان الرجوع إلى طبقة المصادر الأساسية في الموضوع (وبخاصة سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري ومغازي الواقدي وأنساب البلاذري وصحيح البخاري...)، والتعامل المباشر معها. وتجاوز (التضخّم) الذي عانته المصادر المتأخرة، (والارتجال) الذي مارسته المراجع الحديثة، أمرين لازمين لبناء صورة أقرب إلى الواقع التاريخي قدر المستطاع[١]. إن سيرة رسولنا (صلى الله عليه وسلم) تجربة غنية بأحداثها، زاخرة بدلالاتها، متنوعة بمعطياتها، وما كان لباحث يسعى الى إيفائها حقها من البحث والتحليل الا أنَّ يوسع نطاق رؤياه ويصب اهتماماته على هذه الجوانب جميعا ؛ حركية وسياسية وعسكرية وشخصية وفقهية وروحية وواقعية وغيبية وعقيدية وحضارية.

ولم اشأ - من اجل تركيز الصورة وتحديد ابعادها بدقة - أنَّ التزم الخط الزمني لأحداث السيرة، ذلك الخط الذي وقع في أسره معظم الباحثين، فضاعت في مجراه حقائق، وطمست دلالات وقيم، ماكان لها أنَّ تضيع أو تنطمس لو قسمت وقائع السيرة الى وحدات

متجانسة خصص لكل وحدة منها مساحة مناسبة في البحث، استقصيت فيها سائر جوانبها ونسقت جل وقائعها، وحللت معظم دلالاتها وقيمها.

ومعروف أنَّ التزام المجرى الزمني يدفع الباحث الى أنَّ يحشر في النقطة الواحدة، أو المقطع الواحد، مجموعة أحداث ووقائع متنافرة متقاطعة غير متجانسة، ويلجئه احياناً أخرى الى تقطيع الواقعة الواحدة إلى أجزاء متناثرة لايضمها إطار واحد ولا يوحدها تجانس نوعي، وهذا - بطبيعة الحال - نتيجة محتمة للسعي وراء منطق التقسيم الرياضي الصارم للأيام والسنين، وهو الاسلوب الذي اعتمده مؤرخونا القدماء وعرفوه باسم (الحوليات)، حيث لم يكن علم التاريخ ولا مناهج البحث فيه قد استكملت أسبابها بعد.

من أجل ذلك جاء هذا البحث يعرض أحداث السيرة كوحدات محددة الأبعاد وبخاصة في عصرها المدني حيث تكثر الروايات وتتكاثف الأخبار وتزدحم التفاصيل.. تناولت فيها على التوالي : محمد بين الميلاد والنبوة، الدعوة في عصرها المكي، تحليل للهجرة، دولة الاسلام في المدينة، الصراع مع الوثنية، العلاقات بين الاسلام والجبهة البيزنطية - النصرانية، الصراع مع اليهود، ثم حركة النفاق في العصر المدني. وبقدر مارأيت في بعض الروايات والأخبار قوة واهمية، فوقفت عندها طويلا محللاً مستنتجاً، رابطا اياها في نسقها النوعي من الوقائع، بقدر مالمست في روايات وأخبار اخرى ضعفا وانعدام أهمية فأغفلتها أغفالاً تاما، أو مررت بها مرورا سريعاً معتمداً في ذلك على المقياس الصارم وهو قبول كل ما لا يتعارض مع آيات القرآن الكريم ومعطيات السنن الصحيحة، ورفض ماعدا ذلك أو - على الأقل - عدم التسليم المطلق به.

إن اعتماد بعض المؤرخين المحدثين على عدد من مصادر المتاخرين (كالحلبي وأبي الفدا والمقريزي وابن الأثير.. الخ) كمصادر محورية، وتغافلهم عن واحد أو اكثر من المصادر الأساسية الواردة، آنفاً، جعلهم يتركون ثغرات عميقة في صلب أبحاثهم، كما دفعهم الى سرد الكثير من الاضافات (المتأخرة) التي لاتعرفها المصادر الاولى، ومن ثم تضخيم وقائع السيرة إلى أضعاف حجمها الحقيقي على حساب الوقائع نفسها. لذا كان لابد - مرة أخرى – من عرض كافة الروايات على معطيات القرآن والسنة والمصادر الاولى على ما في الأخيرة من إضافات وثغرات - وعلى مقولات العقل الخالص، ثم على الارضية التاريخية التي تحركت فوقها الأحداث، ونمت، واكتسبت ملامحها النهائية. وكل مالا ينسجم مع هذا أو

مع ذاك كان له أنَّ يلغى من حساب المؤرخ الجاد، أو ينسحب - على الأقـل - الـى الخـط الثاني من روايات السيرة ووقائعها الغنية المتشابكة.

إن النبي العربي - يقول الدكتور جواد علـي[٢] - هـو محمـد بـن عبـد الله بـن عبد المطلب. وهو عبد الله ورسوله، ونبي وبشر مثل سائر البشر إلا في النبوة ونزول الـوحي عليه. فقد ورد في القرآن الكريم : ((**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ**))[٣]. وعلى هذه الآية وبوحيها يجب السير في تدوين السيرة النبوية وتاريخها، ولو سار المؤرخ بموجبها وبموجب وحي آيات القرآن الأخرى، لجنب نفـسه الوقـوع فـي المزالـق والمآخذ، وجعل السيرة النبوية، سيرة حية : سيرة نبي مرسل بالمعنى الاسلامي الصحيح الذي نجد روحه في الآية المذكورة. ولو جنب أصـحاب الـسير المتـأخرون سـيرهم القـصص الإسرائيلي الذي أدخل على السيرة وعلى الاسلام، والذي لايتفق مع هذه الآيـة ومـع أحكـام القرآن، لأراحوا السيرة وجنبوا الناس الأخذ بهذا القصص الذي بنى عليه بعض المستـشرقين احكاماً وآراء أساءت إلى الإسلام، وأرادوا بها التشكيك بصاحب الرسالة والمسلمين[٤].

ويؤكد المؤرخ المذكور أنَّ ((في أغلب الروايات التي يتصل سندها بكعب الأحبـار أو محمد بن كعب القرظي أو النعمان السبائي، وهم من مسلمة يهود، أو غيرهم مـن مـسلمة أهل الكتاب طابع القصص الإسرائيلي، وفي اغلبه د سّ على الرسول وعلى الإسلام، كما فـي قصة الغرانيق وفي أمور اخرى... ويظهر من دراسة هذا النوع من القـصص أنَّ أصـحابه كانوا يريدون من روايته ونشره وإدخاله بين المسلمين أمراً، وان قلـوبهم لـم تكـن مـسلمة كألسنتهم، وانهم كذبوا على ما يبدو)).. ويمضي الى القول بـأن ممـا يلاحـظ ((أنَّ هـذا القصص المتقدم هو مايرد في الكتب المتأخرة، أما الكتب الواصلة الينا من أول عهد المسلمين بالتدوين، فقد كانت تتحاشاه في الغالب، ولاتميل اليه ولا الى الخوارق والمعاجز، وهو قصص مخالف لما جاء في القرآن الكريم عن الرسول ولحديث الرسول، ولروح الإسلام، ولهذا وجب أنَّ يكون اعتماد المؤرخ على هذه الموارد المتقدمة المحترمة في نظر النقـاد أمثـال : كتـب الصحاح في الحديث وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري. وسندنا الأول بالطبع ومرشدنا قبل كل هذه هو القرآن))[٥].

وعلى المستوى الحربي يقول محمود شيت خطاب، بصدد المنهج الذي اعتمـده فـي كتابه عن (الرسول القائد) : ((وقد أغفلت ذكر الحوادث التي لايمكن أنَّ تحدث في الحـرب

فعلاً، تلك الحوادث التي يرددها بعض المؤرخين ليثبتوا للناس أنَّ انتصار الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان بالخوارق غير الاعتيادية بالدرجة الاولى، لا بتطبيق مبادىء الحرب. ومن الغريب أنهم يعتبرون ذلك من مظاهر الإيمان برسالة النبي.. لقد كان محمد واقعياً بعيداً عن الخيال، وكان إذا أراد شيئا هيّا له أسبابه.. وقد عمل بكل مبادىء الحرب المعروفة، إضافة الى مزاياه الشخصية الأخرى في القيادة، لهذا انتصر على اعدائه، ولو أغفل شيئا من الحذر والحيطة والاستعداد لتبدّل الحال غير الحال)) (٦)

ونحن نلتقي بهذا التحذير من تضخيم السيرة، وبخاصة فيما قبل البعثة، بحشد من القصص والإسرائيليات والخوارق، في كتاب محمد عزة دروزة القيّم (عصر الرسول) فهو يقول : ((من العجب أنَّ يكون في القرآن آيات كثيرة فيها الكفاية لرسم صورة صادقة لشخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وفيها قرائن وإشارات ودلالات عديدة تساعد على التعرف على نشأته وسيرته قبل البعثة، ثم يعمد بعض المسلمين بل بعض علمائهم إلى تجاوز ذلك إلى ما لا تساعد عليه نصوص القرآن، بل ما تتناقض معه. فأذا كنت ممن تسنى لهم أنَّ يستمعوا قصة من هذه القصص التي تتلى في حفلات المولد، فقد سمعت ولا ريب نماذج من الغلو الذي يكاد يجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) شخصية لاهوتية أو في نطاق اللاهوتية، ولقد وقع غير واحد من كتاب السيرة والشمائل وشرّاحها في هذا الغلوّ (وبخاصة مايتعلق بالميلاد) دون أنَّ يكون لذلك اصل من قرآن أو سند من حديث صحيح أو دعامة من منطق معقول. ويبدو أنَّ غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الإنسان الكامل في النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي يتجلى بالتميز في معظم الخلق وصفاء النفس وكبر القلب وقوة الإيمان ، والمهمة العظمى التي اضطلع بها، ورأوا أنه لابد أنَّ يكون من لوازم نبوته واصطفائه أنَّ تكون ثمة مقدمات وبشائر)) (٧).

لكن أياً من المؤرخين السابقين، أو غيرهم من المؤرخين الجادّين، لم يقل إن الضرورة المنهجية الملحة لرفض الإسرائيليات والقصص والخوارق تدعونا أنَّ نقطع السيرة عن أية صلة لها بعالم الغيب - كما يرغب دعاة التفسير المادي للتاريخ أنَّ يكون - لأن معنى هذا بوضوح نكران لنبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) واتصاله - عن طريق الوحي غير المرئي - بعالم (الغيب) في السماء، كما أنهم لم يقولوا - ولا أي من المؤرخين الجادين - أنَّ رفض القصص والخوارق يدعونا بالضرورة الى رفض الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى

طمس على أعين المشركين الذين حاصروا دار الرسول (صلى الله عليه وسلم)، قبل هجرته، سعياً وراء قتله، أو انه صدّهم عن إلقاء القبض عليه وهو مختبىء وصاحبه في الغار، أو انه انزل ملائكته من السماء لتنصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة في معركة بدر، ومعارك اخرى تلتها..

إن كثيراً من وقائع السيرة، واخبارها أوضح من ان تتكلف فيها الشروح والتفاسير والتعليقات، ومن ثم فهي لن تحتاج إلا إلى قدر معقول من تنسيق المادة الأولية وترتيبها، قائم على منهج علمي في الانتقاء والاستبعاد، ليس كذلك الذي اعتمده كثير من الباحثين المحدثين، وبخاصة طبقة المستشرقين الأولين التي حكمت الظن وانساقت وراء الهوى ، وهي تنتقي وتستبعد ، أو تحلل وتستنتج وفق منهج بحث لاتقرّه بداهات العلم.

وهنا أحب أنَّ اقف بعض الوقت لأعرض بإيجاز لهذه المسألة المنهجية ، التي سوف لا أعود اليها مرة اخرى إلا لماماً، خوف أنَّ تندّ بي عن المنهج الموضوعي في دراسةالسيرة من مصادرها (الاساسية) وبيئتها (الواقعية) بعيدا عن الرؤى والإسقاطات المعاصرة شخصية ومذهبية، مما يتطلب بحثاً آخر يضم مطولات من الردود والأثباتات والتحليل والمناقشات أحسب انها تتم فعلاً وأنها في طريقها الى الظهور[٨].

يقول الدكتور جواد علي ((.. أخذ على بعض المستشرقين تسرعهم في اصدار الأحكام في تاريخ الإسلام، وتأثرهم بعواطفهم لأخذهم بالخبر الضعيف في بعض الاحيان، وحكمهم بموجبه، ولإصدارهم احكاماً بنيت على الألفاظ المشتركة أو المتشابه، مع قولهم بوجوب استعمال النقد، وباحتراسهم في الأمور ووجوب التأكد من معرفة الآخذ قبل الحكم عليه.. وآية ذلك أنَّ معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين أو من المتخرجين من كليات (اللاهوت) وأنهم إن تطرقوا الى الموضوعات الحساسة من الاسلام حاولوا جهد إمكانهم ردّها إلى أصل نصراني. وطائفة المستشرقين من يهود وخاصة بعد تأسيس (إسرائيل) وتحكم الصهيونية في غالبيتهم، يجهدون أنفسهم لرد كل ماهو إسلامي وعربي لأصل يهودي، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء)) [٩].

ويمضي الدكتور جواد علي إلى القول بأن كثيراً من المستشرقين ((غالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية، وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة. وقد أثاروا الشك حتى في أسم الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود

النبي. وطريقة مثل هذه دفعتهم الى الأستعانة بالشاذ والغريب فقدموه على المعروف المشهور. واستعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً، أو من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا الى نشوزه، تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك. ومهما قالوا في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإن سيرة الرسول هي أوضح وأطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء.. والذين يؤاخذون المستشرقين على سلوكهم هذا المسلك من النقد يؤاخذون كذلك من يحاول من المسلمين كتابة التاريخ متأثراً بعاطفته وهواه. فهم لايريدون توجيه اللوم إلى المستشرقين وحدهم لتأثرهم بعاطفتهم ثم يتركون من يركب هذا المركب من الشرقيين دون لوم ولا تعنيف)) [١٠].

فالمنهج العلمي هو المنهج العلمي، والخروج عنه هو خروج عن العلم الصحيح سواء مارسه رجل في أقصى الغرب أم في أقصى الشرق، وسواء كان وراءه إنسان يتعبد في كنيسة أم يصّلي في مسجد.. والرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه يقول (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار).. ولم يحدد (صلى الله عليه وسلم) هوية الكاذبين وانتماءاتهم الدينية والجغرافية.

ويحدثنا الدكتور (صالح أحمد العلي) كيف أنَّ بداية الحركة الاستشراقية في مواقفها الظنية والعاطفية من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كانت قد جانفت العلم كثيراً، ثم بدأت تعتدل شيئا فشيئاً، ((لقد تناول المستشرقون الغربيون حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما تناولوا من الأبحاث عن التاريخ الإسلامي. ولاشك أنَّ التعصب والتحامل كانا يغطيان على كتابات المستشرقين القدامى نظراً لتأثرهم بروح التعصب الديني الذي كان مسيطرا ومتبلوراً بتأثير الحروب الصليبية، ونظرا لضعف معرفتهم باللغة العربية، وقلة المصادر المتوفرة لديهم. غير أنه لم يخل الغرب منذ أوائل العصور الحديثة من مفكرين معتدلين امتدحوا الإسلام[١١] ولكن منذ القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بدراسة المخطوطات العربية وطبعها، وأخذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق ذاته متّبعين الطريقة العلمية التي كانت قد قطعت شوطاً كبيراً من التقدم في الغرب. ومع أنَّ فريقا منهم لم يتقن كل ذلك، إلا أنَّ عدداً غير قليل كان يتميّز بسعة الأطلاع، وبعد النظر، وعمق التفكير، مما ساعدهم على انتاج مباحث تستثير التفكير والتقدير، رغم أنه لايمكن القول بأن أحكامهم نهائية)) [١٢].

ويعود جواد علي ليبين لنا كيف أنَّ (كايتاني) وهو من كبار المستشرقين الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كان يعتمد منهجا (معكوسا) في البحث يذكرنا بكثير من المختصين الجدد في حقل التاريخ الإسلامي، والذين يعملون وفق منهج خاطىء من أساسه إذ أنهم يبيّتون فكرة مسبقة ثم يجيئون الى وقائع التاريخ لكي يستلوا منها مايؤيد فكرتهم ويستبعدوا مادون ذلك. فلقد كان كايتاني ((ذا رأي وفكرة، ووضع رأيه وكونه في السيرة قبل الشروع في تدوينها، فلما شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به، ضعيفها وقويها، وتمسك بها كلها، ولا سيما ما يلائم رأيه، لم يبالِ بالخبر الضعيف بل قواه وسنده وعدّه حجة، وبنى حكمه عليه. ومن يدري ؟ فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء، ولكنه عفا عنها وغضّ نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها، لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إن ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث ؟))[١٣].

ومن المستشرقين أنفسهم من دفعهم جدّهم وموضوعيتهم - وهم ليسوا بالقليل - إلى نقد وتفنيد الأخطاء المنهجية التي مارسها رفاقهم في دراسة التاريخ عامة وحياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) خاصة، والى تعرية الدوافع التي تكمن وراء موقفهم هذا، سواء كانت محتشدة في الوعي أو منسربة في اللاشعور.. ((لقد رأى (دينيه) أنه من المتعذر، إن لم يكن من المستحيل، أنَّ يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة، وانه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغاً يغشي على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها، ورغم مايزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي الجاد فإننا نلمس من خلال كتاباتهم محمدا يتحدث بلهجة المانية، إذا كان المؤلف المانياً، وبلهجة ايطالية إذا كان الكاتب إيطاليا، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب. وإذا بحثنا في هذه السير عن الصورة الصحيحة فإننا لانكاد نجد لها من أثر. إن المستشرقين يقدمون لنا صوراً خيالية هي أبعد ماتكون عن الحقيقة ! إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال (وولتر سكوت) و (إسكندر ديماس) وذلك أنَّ هؤلاء يصورون أشخاصا من أبناء قومهم، فليس عليهم إلا أنَّ يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة، أما المستشرقون فلم يمكنهم أنَّ يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة، فصوروهم حسب

منطقهم الغربي وخيالهم العصري. وأن الدكتور (سنوك هير غرنجة) ليقول بحق في نهاية نقده لكتاب المستشرق غريم (إننا نرى أنَّ الأستاذ غريم لو اقتصر على درس السيرة النبوية القديمة وبحثها بعمق لكان أفضل، وأن الثمار التي كان يمكن أنَّ يجنيها من مثل هذا الدرس لهي أجدر ببلوغ الغاية التي توخّاها، ولكنه ظن أنَّ هذا عمل ليست له أهمية كبيرة، وأراد أنَّ يطرف الناس بنبأ جديد ففشل في وضع السيرة النبوية)..)) [١٤].

وفي ختام كتاب (آتيين دينيه) القيم (الشرق كما يراه الغرب) ترد بعض الآراء حول (المنهج) حيث يقول ((لقد أصاب الدكتور سنوك هير غرنجة ((إن سيرة محمد الحديثة تدل على أنَّ البحوث التاريخية مقضي عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأي سابق)). هذه حقيقة يجمل بمستشرقي العصر جميعاً أنَّ يضعوها نصب أعينهم، فإنها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التي تكلفهم من الجهود مايجاوز حدّ الطاقة فيصلون إلى نتائج لا شك خاطئة[١٥]. فقد يحتاجون في تأييد رأي من الاراء الى هدم بعض الأخبار، وليس هذا بالأمر الهين، ثم إلى بناء اخبار تقوم مقام ماهدموا، وهذا أمر لاريب مستحيل. إن العالم في القرن العشرين يحتاج إلى معرفة كثير من العوامل الجوهرية كالزمن والبيئة والإقليم والعادات والحاجات والمطامح والميول.. إلخ لاسيما إدراك تلك القوى الباطنة التي لاتقع تحت مقاييس المعقول والتي يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات)). ثم مايلبث دينيه أنَّ يضرب (مثلاً عكسيا) فيقول : ((ما رأي الأوربيين في عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التي تكثر عن مؤرخي الفرنسيين ويمحصها بمنطقها الشرقي البعيد، ثم يهدم قصة (الكاردينال ريشيليو) كما نعرفها، ليعيد لنا ريشيليو آخر له عقلية كاهن من كهنة بكين وسماته وطباعه !؟ إن مستشرقي العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويخيل إلينا أننا نسمع محمداً يتحدث في مؤلفاتهم إما باللهجة الألمانية أو البريطانية أو الفرنسية ولا نتمثله قط - بهذه العقلية والطباع التي ألصقت به - يحدث عرباً باللغة العربية))، وينتهي المستشرق الفرنسي - الذي أعلن اسلامه - إلى القول ((إن صورة نبينا الجليلة التي خلفها المنقول الإسلامي تبدو أجلّ وأسمى إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التي صيغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد)) [١٦].

ويحدثنا المستشرق البريطاني المعاصر (مونتكمري وات) في كتابه (محمد في مكة) كيف ((إن عزيمة محمد في تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا به، وكان لهم بمثابة القائد، وأخيراً عظمة عمله في منجزاته الأخيرة، كل ذلك يشهد باستقامته التي لا تتزعزع، فأتهام محمد بأنه دجّال Imposteu يثير من المشاكل أكثر مما يحل، ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حط من قدرها في الغرب كمحمد. فلقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد. وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكناً قبلوه)). ثم يقدم (وات) قاعدة منهجية تكاد تكون بديهية من بداهات المنهج الأساسية، إلا انها في موقف الغربيين إزاء شخصية محمد تضيع ويوقف العمل بها.. ((فإذا أردنا أنَّ نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدده، فيجب علينا في كل حالة من الحالات، لا يقوم الدليل القاطع على ضدّها، أنَّ نتمسك بصلابة بصدقه، ويجب علينا ألا ننسى أيضا ان الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً، وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه)) [١٧].

وفي مكان آخر يضرب (وات) بالمستشرق الفرنسي (لامانس) مثلاً على الانحرافات المنهجية التي يمارسها كثير من المستشرقين، وبخاصة ذلك (الخطأ) الذي سبق أنَّ ذكرناه والذي يقوم على جعل الوقائع التاريخية مجالا انتقائياً للتدليل على فكرة مسبقة أو اتجاه محدد سلفاً. إن لامانس ((للأسف !! يتجاوز الأدلة كثيرا في ناحية اخرى ، إذ أنَّ طريقته العابثة (!!) في المعالجة ليست طريقة علمية (!!)، فهو يرفض هذا الرأي ويقبل الآخر حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته، دون أنَّ يعبأ بالموضوعية. ففي عبارة (الأحابيش وعبيد أهل مكة) نجد أنَّ (الواو) تفسيرية تشير إلى أنَّ الأحابيش من ضمن العبيد، بينما نجد في عبارة (الأحابيش ومن أطاعهم - أي القرشيين - من قبائل كنانة وأهل تهامة) أن (الواو) تدل على تمييز تام. ولكن لماذا يفعل لامانس ذلك ؟ يبدو أنه يؤكد تحقيق النظرية التي يحاول التدليل عليها)) [١٨].

ونحن نستطيع أنَّ نحصل على عشرات، بل مئات، من هذا (الانتقاء الكيفي) أو التفسير (الاختياري) للنصوص التاريخية في كثير من كتب المستشرقين وبخاصة أجيالهم الاولى. فبروكلمان - على سبيل المثال - لايشير الى دور اليهود في تأليب الاحزاب على المدينة، ولا الى نقض بني قريظة عهدها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أشد ساعات

محنته، ولكنه يقول ((ثم هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضا على كل حال)) [١٩]. ويتغاضى (إسرائيل ولفنسون) عن حادثة نعيم ابن مسعود في معركة الخندق كسبب من انعدام الثقة بين المشركين واليهود[٢٠]، ولعله يريد أنَّ يوحي بذلك أنَّ اليهود لا يمكن أنَّ يخدعوا !!

ودرمنغم يشير هو الآخر، وبوضوح أشد، الى الأزمة المنهجية التي تعرّض معظم البحاث الغربيين عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأخطاء لن يغفرها العلم، وكيف أنها - في العقود الأخيرة - بدأت تخف تدريجياً. إن سيرته - يقول درمنغم - ((تحاط في زماننا بكثير من التحفظات، ولاريب في مجاوزة النقد للحد أحياناً على وجوه مختلفة مع الأسف، ولكن من المؤكد أنه لايحدث اليوم عن حياة محمد بتعابير ووجهات نظر كالتي جاءت في كتب التراجم الأخيرة التي ظهرت في المكتبة الفرنسية منذ خمسين سنة ككتاب واشنطن أرفنج))، ويمضي درمنغم الى القول بأنه ((جد في البحث العلمي بعض العلماء في القرن التاسع عشر ومنهم كوسان دوبرسفال وموير وفيسل ومرغليوث ونولدكه وشبرنجر وهورغرنجه ودوزي، ثم تناوله - أي النبي (صلى الله عليه وسلم) - مؤخراً كايتاني ولامانس وماسنيون ومونته وكازانوفا وبيل وهوار وهوداس وأرنولد ومارسيه وغريم وغولد سيهر وغودفروا ومونبيه وغيرهم. ومن المؤسف حقا أنَّ غالى بعض هؤلاء المتخصصين في النقد احياناً، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص.. ومن المحزن ألا تزال النتائج التي انتهى اليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على النفي، وليس من مقاصد كتابي أنَّ يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة.. ومن دواعي الأسف أنَّ كان الأب لامانس، الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين، من أشدهم تعصبا، وأنه شوّه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبي الإسلام فعند هذا العالم اليسوعي أنَّ الحديث إذا وافق القرآن كان منقولاً عن القرآن، فلا ادري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة، بدلا أنَّ يؤيد أحدهما الآخر ؟))[٢١].

وهذا يقودنا الى موقف بعض المستشرقين من القرآن، كمصدر أساسي من مصادر السيرة، ذلك أنَّ اعتماد القرآن في هذا المجال يمكن أنَّ يعتبر سلاحا ذا حدين، اعتمد جانبه الإيجابي مؤرخون كجواد علي وصالح أحمد العلي ومحمد عزة دروزة واعتمد الجانب السلبي مستشرقون كوات وشبرنجر،وولفنسون وغيرهم، وذلك بنفي الكثير من أحداث السيرة، مادامت

لم ترد في القرآن الكريم ؛ وكأن القرآن كتاب تاريخي خاص بتفاصيل حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) !! وهذا مكنهم من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع سلبي ومعاكس، وهي التشكيك ورفض كل رواية لا ترد مؤيداتها في القرآن، إذا كان في هذه الرواية تمجيد للنبي (صلى الله عليه وسلم)، أو إذا كان في نفيها تأكيد لأحدى وجهات النظر الاستشراقية.

فمثلاً نجد Sprenger يرى أنَّ اسم النبي ورد في أربع سور من القرآن هي آل عمران والأحزاب ومحمد والفتح، وكلها سور مدنية ، ومن ثم فإن لفظة (محمد) لم تكن اسم علم للرسول قبل الهجرة، وإنما اتخذه بتأثير قراءته للإنجيل واتصاله بالنصارى(٢٢) !! واذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد التقط اسم (محمد) من خلال قراءته لنبوءات الإنجيل فأين ذهب إذا (محمد) الحقيقي الذي بشر به العهدان القديم والجديد ؟

وهناك مثل اخر، إن اسرائيل ولفنسون يشير، بصدد مهاجمة يهود بني النضير، إلى أنَّ مؤرخي العرب يذكرون سببا آخر لإعلان الحرب على هذه الطائفة اليهودية ذلك هو محاولتهم اغتيال الرسول (صلى الله عليه وسلم) ((لكن المستشرقين – يقول ولفنسون – ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على كذبها بعدم وجود ذكر لها في سورة الحشر التي نزلت بعد إجلاء بني النضير.. والذي يظهر لكل ذي عينين (!!) أنَّ بني النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبي واغتياله على مثل هذه الصورة لأنهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من أنصاره(٢٣) ولو انهم كانوا ينوون اغتياله غدراً لما كانت هناك ضرورة لإلقاء الصخرة عليه من فوق الحائط، كان في استطاعتهم ان يفاجئوه وهو يحادثهم إذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه)) (٢٤)، ويبدو أنَّ ولفنسون يغفل هنا مسألة التركيب النفسي (لليهودي) وتجنبّه المعروف لأية مجابهة حقيقية !!

إننا في مجال الانتقاء والتفسير والنفي الاعتباطي هذا، نرجع - مرة اخرى - إلى عبارة (وات) الذكية والتي قالها في هذا الصدد، لكنه لم يلتزم العمل بها دائماً !!.. ((.. إذا أردنا أنَّ نصحّح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدد محمد، فيجب علينا في كل حالة من الحالات لا يقوم الدليل القاطع على ضدها أنَّ تتمسك بصلابة بصدقه، ويجب ألا ننسى أيضاً أنَّ الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً، وإنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه)) (٢٥).

وفضلا عن هذا، نجد أن الطابع العلماني، الوضعي، للمناهج الغربية في تعاملها مع تاريخنا، أوقع عدداً من المستشرقين في خطأ آخر مفاده أنَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يخطو خطوة واحدة وهو يعلم مسبقاً مالذي يليها !! أي إن نشاطه كانت توحي به الظروف (الراهنة) ومتطلباتها ولوازمها. وأبرز مثل في هذا المجال ماذكره (فلهاوزن) وعدد من رفاقه حول قومية الحركة الإسلامية في عصرها المكي، وأنها لم تنتقل إلى المرحلة العالمية - في العصر المدني - إلا بعد أنَّ اتاحت لها (الظروف) ذلك، ولم يكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليفكر بذلك من قبل، وما قالوه حول أعتماد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسلوب (اللاّعنف) في العصر المكي وتحوله إلى القوة بعد أنَّ شكل دولة في المدينة وتجمع حوله المقاتلون ((لقد كان في وسع محمد - يقول فلهاوزن - من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التي ترسمها رابطة الدم، أنَّ يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها، ولاكانت ذات صبغة خارجية عارضة، هذا هو الذي جعلها لاتتسع لقبول عنصر غريب عنها، ولكن محمداً لم يرد ذلك. ومن الجائز ايضاً أنه لم يكن يستطيع أنَّ يتصور إمكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم)) [٢٦].

وفي مكان آخر يقول ((وليس ثم مايدعو الإنسان لآن يعيب عليه - أي محمد - أنه حقق إنشاء مملكة الله في الأرض على الأساس الطبيعي الذي وجده أمامه، فهو وإن كانت الضرورات العملية، في كثير من الأحيان، قد اضطرته أو هي انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدّسة، من غير أنَّ يسند ذلك إلا إلى الله، فلا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أنَّ يعتبره منافقاً)) [٢٧].

ويرفض (سير توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) هذه الرؤية الخاطئة فيقول ((من الغريب أنَّ ينكر بعض المؤرخين أنَّ الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادىء الأمر أنَّ يكون ديناً عالميا برغم هذه الآيات البينات[٢٨].. ومن بينهم السير وليم موير إذ يقول ((إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد، وأن هذه الفكرة، على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنه فكر فيها، فقد كانت الفكرة غامضة، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب، كما أنَّ هذا الدين الجديد لم يهيّأ إلا لها. وأن محمداً لم يوجه دعوته، منذ بعث إلى ان مات، إلا للعرب دون غيرهم)). وهكذا

نرى أنَّ نواة عالمية الإسلام قد غرست، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلــك فإنمــا يرجع هذا الى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج)) [٢٩].

وفي مكان آخر يقول أرنولد ((لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب بــل إن للعالم أجمع نصيباً فيها، ولم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لايكون هناك غير دين واحــد يدعى إليه الناس كافة)) [٣٠].

ولم يقف أرنولد وحده ؛ بمواجهة هذا الخطــأ الواضـــح إنمــا هنـــاك كولـــدزيهر[٣١] ونولدكه[٣٢] وسخاو[٣٣] الذي يؤكد ((أنَّ الرسالة الإلهية ليست مقصورة على العــرب بــل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات، ومعنى ذلك خضوع الإنسانية كلها خضوعا مطلقاً. وقد كان لمحمد بوصفه رسولاً من الله، حق المطالبة بهذه الطاعة، وقد كان عليه أنَّ يطالب بها، وهــذا ما ظهر من أول الأمر جزء لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادىء..)) [٣٣٤].

ويرفض أرنولد الخطأ الآخر الذي يرى أنَّ محمداً قد تحول الى القوة بمجرد أنَّ واتته الظروف، وهو رأي قد صرّح به - نقلاً عن فلهاوزن - بعض الباحثين ولاسيما ميور عنــدما تحدث عن مذبحة بني قريظة فقال ((إن الدعائم التي سار عليها محمد قدماً كانــت سياســية محضة، إذ انه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة اكراه الناس علــى اعتنـــاق الإســـلام أو معاقبتهم على رفضه..)) [٣٥].. إذ يقول أرنولد ((إنما المهم أنَّ نتبين كيف أنَّ محمداً، عنــدما رأى أنه على رأس جماعة مسلحة من أتباعه لم يتحوّل دفعه واحدة، كما قد يريــدنا الــبعض على الأعتقاد، من داعية مسالم إلى متعّصب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه علــى كــل مــن استطاع، وقد أكد الكتّاب الأوربيون على ذلك مراراً)) [٣٦].

إلا أنَّ ارنولد لم ينج من الوقوع في الخطأ نفسه عندما يقول ((كانت رغبــة محمــد ترمي إلى تأسيس دين جديد، وقد نجح في هذا السبيل، ولكنه في الوقت نفسه أقام نظاماً سياسياً له صفة جديدة متميزة تميزاً تاماً. وكانت رغبته بادىء الأمر مقصورة على توجيه بني وطنــه إلى الاعتقاد بوحدانية الله)) [٣٧].

غير أنَّ أسوأ نموذج يمكن أنَّ نجده لهذه الانحراف المنهجي، حول مسألة تأثر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالظروف الراهنة، وتحركه وفق مستلزماتها، ماذكره بندلي جــوزي، أحد رواد التفسير المادي للتاريخ الإسلامي، في كتابه (من تــاريخ الحركــات الفكريــة فـــي الإسلام) حيث يقول ((إن سياسة النبي مع المكيين قد تغيّرت كثيراً في المدينة تحــت تــأثير

عوامل جديدة ولأسباب عديدة أوجدتها الظروف وأدى إليها الاختبار وحب النبي لوطنه الأصلي وأهله وذويه إلى غير ذلك من الانفعالات النفسية والعوامل السياسية التي ظهرت بعد موقعتي بدر وأحد وحصار المدينة، وكان من نتائجها أنَّ النبي أخذ يلطف من سياسته نحو إخوانه المكيين، كما أنَّ أصحاب السلطة في مكة رأوا - بعد ماأصابهم في موقعة بدر، وبعد ما لحق بتجارهم من الخسائر - أنَّ يتساهلوا في أمور كثيرة مع النبي على شروط تضمن لهم بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ماكانت عليه قبل الإسلام، وأن يشملهم بالعفو - إلا بعض اشخاص - ويشركهم في عمله الجديد الذي أخذوا يتوقعون منه خيراً لأنفسهم. وربما كان من شروط التفاهم(٣٨) أنَّ يبقى النبي في المدينة وأن لايتعرض في كلامه لأمورهم المالية، فكانت الحديبية، وسياسة (تأليف القلوب) أو بعبارة اخرى سياسة التسامح والتساهل المتبادل (Compromis) فصار الناس (يدخلون في دين الله أفواجاً) لا عن اعتقاد بصحة الدين الجديد الذي لم يكونوا يعرفون عنه إلا الشيىء القليل، بل عن رغبة في التقرب من أصحاب السلطة الجدد، وحفظاً لمراكزهم الفديمة وثروتهم المجموعة من أجيال. يخيل لي - يقول جوزي - إن من جملة الشروط التي اتفق عليها الطرفان في الحديبية أو في زمان ومكان آخرين، أنَّ يكفّ النبي عن الطعن في الملأ المكي، وأن لايحرض صعاليك العاصمة الحجازية وأرقاءها عليه، وهذا - على مايظهر لي - أحد أهم أسباب خلو السور المدنية، ولاسيما تلك التي نزلت في الدور الأخير، من العبارات القارصة والطعن في سكان مكة(٣٩). وهناك سبب آخر لا يقل خطورة عن الذي ذكرناه الآن، وهو أنَّ حالة النبي الاجتماعية في المدينة تغيرت - كما هو معلوم - تغيراً ظاهراً أدى الى تغيير نفسيته. فكان من نتائج هذا التغيير ومن الأسباب التي ذكرنا بعضها وغيرها مما لم نذكر (؟) أنَّ بعض إصلاحات النبي الاجتماعية والدينية جاءت مبتورة، وفيها شيء مما يدعوه الأوربيون : التساهل)) (٤٠).

ويمضي بندلي جوزي إلى القول بأن ((الدور المكي كان دور تمهيد واستعداد، دور بث دعوة جديدة بين طبقات الأمة، دور حرب ونزاع كلامي بين رجل ثابت في مبادئه، مخلص في عمله، وبين طبقة من الناس شعرت بالخطر على ثروتها وزعامتها في البلاد، فهبّت تقاوم ذلك الرجل وتناوئه، دور جهود وأحلام لو تحققت كلها لقلبت البلاد رأسا على عقب. ما أجمل هذا الدور وما أعظمه وما أحلى تلك الأحلام والمساعي التي بذلت في تحقيقها !! وأما الدور الثاني فكان دور عمل وتنظيم، ودور حروب وافتتاحات، ودور سياسة

ومكاشفات أدت إلى تساهل من الطرفين. ومعنى التساهل في مثل هذه الثورات الاجتماعية هو التنازل عن بعض مطالب أو مبادىء أو التلطف في الطلب، والرجوع عن بعض الافكــار، أو وضعها في قالب يرضاه الفريقان. وهذا ماكان من أمر النبي العربي، ورئيس جمهورية مكــة (أبو سفيان) الخبير المحنك الذي كان يتكلم بلسان الملأ المكي، هذا يعتــرف بــسيادة النبــي الروحية والعالمية، ويهجر الأوثان، ويؤدي الزكاة ويقيم الصلاة، وذاك يتعهد أنَّ تبقــى مكــة مركز البلاد العربية الديني وأن يجعل لأعيان مكة وقادة أفكارها حظاً فــي إدارة المملكــة أو الجمهورية الروحية الجديدة، وأن يتركهم وشأنهم يتاجرون ويعيشون كما يشاؤون. أما الفريــق الثالث (أي الفقراء)، وهو الطرف الذي استعرت الحرب لأجله، وظهرت الــدعوة لتحــسين أحواله، فقد أرضوه في بادىء الأمر بشيء من الصدقات والزكاة ثم نسوه أو تناسوه بعد وفــاة النبي وخلفائه الأولين، فرجع إلى حالته الأولى بل إلى ماهو أسوأ منها)) [٤١].

إن فهم السيرة لايمكن أنَّ يتم إلا وفق نظرة شمولية تدرس حركة الإسلام كخطــوات في برنامج شامل مرسوم في علم الله، ومحدّد في قرآنه، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن سوى منفّذ لهذا البرنامج بأسلوب يعتمد على قدراته وأخلاقيته وذكائه وإمكاناتــه الفــذة في التخطيط والتنفيذ.. ورغم أنَّ القرآن الكريم نزل منجّماً، وراحت آياته تنزل على مكث لكي تلامس الأحداث وتعلق عليها (بعد وقوعها) إلا انه بمجموعه كمبدأ (أيديولوجية) لايخــرج عن نطاق كونه برنامجاً إلهياً شاملاً ترتبط ممارساته الجزئية بكليات شاملة محددة ســلفا فــي علم الله. ومن ثم فإن (الظروف الراهنة) ليست هي الحتمية المؤقتة التي تحدد مسار الإسلام وخطى رسوله انما هناك (الهدف) الذي يفرض أحياناً (وقفة) ضد الأعــراف والظــروف و (تمرداً) عليها و (انقلآباً) شاملاً على مواضعاتها، وهذا مــا يبــدو واضــحاً منــذ أول لحظة، في الشعار الحاسم الذي طرحه الرسول (صلى الله عليــه وســلم) بوجــه الجاهليــة (لا إله إلا الله !!)، فأي ظرف راهن، موقوت، أوحى بهذا الشعار الانقلابي الــشامل الــذي جاء يدمر على الوجود الجاهلي جلّ قيمه وأهدافه ومعالمه ومفاهيمه وعاداته وتقاليده ؟ !

إن توماس أرنولد يشير الى ذلك بوضوح عندما يقول ((لايعزب عن البــال كيــف ظهر جلياً أنَّ الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض والمثل العليا في هذين المجتمعين تعارضاً تاماً. ذلك أنَّ دخول الإسلام في المجتمع العربي لــم يــدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب وإنما كان انقلابا كاملاً لمثــل

الحياة التي كانت من قبل... والواقع أنَّ المبادىء الأساسية في دعوة محمد كانت تعارض كثيراً ما كان ينظر اليه العرب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين، كما أنها كانت تعلم حديثي العهد بالإسلام أنَّ يعدوا من الفضائل صفات كانوا قبل اسلامهم ينظرون اليها نظرة الاحتقار)) [٤٢].

إن القرآن الكريم كان قضية فوقية جاءت آياته لتقود الإنسان في كل زمان ومكان إلى عصر جديد، ولم يكن (ينفعل) انفعالاً مؤقتاً بالوضع السائد، سلبا وايجاباً، كما يتصور معظم المستشرقين مسيحيين وماركسيين، وإنما كان ينظر نظرة شمولية بعيدة كل البعد عن ردّ الفعل المباشر، وهذا هو الذي يفسر لنا الكثير من الأخطاء التي مارستها مناهج البحث الغربية.

ونحن لا نطلب من الغربيين هنا أنَّ يؤمنوا أنَّ القرآن منزل من السماء وأن محمداً رسول.. وإنما نطلب أنَّ يكونوا أكثر تجرداً وموضوعية فينظروا إلى سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كوحدة عضوية متكاملة، والى القرآن الكريم كبرنامج Ideology مترابط، تعلو معطياته على الظروف الموقوته زماناً ومكاناً، رغم ملامساتها اليومية المباشرة للوقائع الزمانية والمكانية، ولكنها الملامسة التي تنبثق عنها قيم ودلالات ذات طابع شمولي ماكان للمستشرقين أنَّ يغفلوا عن أبعادها !!

* * *

وكما كشف المستشرقون، بتعمقهم ونفاذهم وإحاطتهم، النقاب عن الكثير من الجوانب المضطرية الغامضة في تاريخنا الإسلامي عامة، بما فيه سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، إلا أنهم - بأخطائهم المنهجية آنفة الذكر - طرحوا الكثير من النتائج والمعطيات الموضوعية الخاطئة، وهذا أمر طبيعي، فالخطأ لاينتج إلا الخطأ، والبعد عن الموضوعية، لا يقود إلا الى نتائج لا تحمل من روح العلم والجدية إلا قليلاً.

وليس هنا مجال عرض هذه المعطيات والنتائج، ومناقشتها، فلهذا مجال آخر كما سبق وأن ذكرنا... إلأ أننا نطرح فيما يلي نماذج محدودة فحسب من حصاد ضخم يمكن أنَّ يجنيه كل دارس بتأن وروية، لما كتبوه عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو حصاد يحمل في ثناياه عناصر تناقضه واضطرابه وخروجه عن البحث المنهجي الدقيق.

يقول بروكلمان : ((في هذه الأثناء كان مسلمو مكة، على ماتقول الروايات، يعـانون أزمة جديدة. ذلك أنَّ حديث محمد عن إسرائه العجيب، برفقة جبريل إلى بيت المقدس، ومن ثم إلى السماء، كان قد أوقع موجة من الشك في نفوس بعض المؤمنين، ولكن أبا بكـر ضـرب بإيمانه الراسخ مثلاً طيبا" لهؤلاء المتشككين فزايلتهم الريب والظنون. ومن الجـائز أنَّ تكـون هذه الرحلة السماوية التي كثيراً ما أشير إليها بعد في الأساطير الغريبة التي خلفتها لنا الكتـب الإسلامية جميعها، أقدم من ذلك عهداً، ولعلها ترجع الى الأيام الأولى للبعثة النبويـة. وأمثـال هذه الرؤى في أثناء تهجّد العر!اف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية))[٤٣].

((وقد حالت الظروف بين الرسول وبين الشروع في شن حملة نظامية مباشرة علـى المشركين. فقد كانت فكرة الشرف العربية القديمة تمسك المهاجرين عن محاربة إخوانهم مـن قريش في حين كان المدنيون غير شديدي الميل إلى تعكير صفو السلم مع جيرانهم الاقويـاء.. حتى إذا كان شهر رجب الحرام وجه جماعة من الغزاة بأوامر سرية، فوفّقت الى مباغتة قافلة بالعروض، كانت حاميتها العسكرية تتقدمها مطمئنة إلى حرمة الشهر، فاصابت غنائم عظيمـة عادت بها إلى المدينة. ولكن هذا النقض للقانون الخلقي القبلي لم يلبث أنَّ أثار عاصـفة مـن الاستنكار في المدينة نفسها، فما كان من محمد إلا أنَّ أنكر صنيع أتباعه، الذي تم وفقاً لرغباته بلا خلاف، وعزاه الى سوء فهم لأوامره. ولم يجرؤ علـى إعـلان شـرعية الحـرب ضـد المشركين، وتوزيع الغنائم حتى في الشهر الحرام، إلا في آيات متأخرة، بعد أنَّ كانت الغنـائم العظيمة قد أثارت مطامعه إثارة كافية)) [٤٤].

((وتأثرت اتجاهات النبي الدينية، في الأيام الأولى من إقامته في المدينة، بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود، وأغلب الظن أنه كان يرجو، عقب وصوله إلـى المدينـة، أنَّ يـدخل اليهود في دينه، وهكذا حاول أنَّ يكسبهم عن طريق تكييف شـعائر الإسـلام بحيـث تتفـق وشعائرهم في بعض المناحي.. ولم يطل العهد بمحمد حتى شجر النزاع بينـه وبـين أحبـار اليهود، فالواقع أنهم على الرغم مما تم لهم من علم هزيل في تلك البقعة النائية، كانوا يفوقـون النبي الأمي في المعلومات الوضعية وفي حدة الإدراك. فالفجوات المختلفة التي تكشف عنهـا علمه بالعهد القديم والتي كان قد تركها عارية في السور المكية، لم يعد من الممكـن أنَّ تظـل خافية عليهم. ولكن إشاراتهم الساخرة إلى هذه الفجوات كانت أعجز من أنَّ تزعـزع إيمانـه بصحة ما يوحى اليه)) [٤٥].

((وكان على محمد أنَّ يعوض خسارة (أحد) التي أصابت مجده العسكري، من طريق آخر، ففكر في القضاء على اليهود، فهاجم بني النضير لسبب واه)) [٤٦].

((وفي سنة ٦٣٨ (= ٧ هـ) حاول النبي أنَّ يعوض فشله الظاهري في الحديبية فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر)) [٤٧].

دوزي : ((كان محمد يشاطر بني جلدته نظرتهم (القائمة على الاحتقار) إلى اليمنيين والزراع حتى ليؤثر عنه أنه سمع رجلاً ينشد بيتاً يشير فيه إلى انه حميري وليس أسلافه من ربيعة ولا مضر، فقال له مامعناه : أف لك، إن هذا النسب يبعدك عن الله ورسوله. ويقال ايضاً أنه رأى محراثا في بيت رجل من أهل المدينة، فذكر له أنه مادخل دار قوم إلا دخلها الذل. إلا انه لما يئس من حمل أهل جنسه من التجار والبدو على أعتناق مبادئه، ولما رأى أنه مهدد في حياته منذ أنَّ مات عمه وحاميه أبو طالب، فقد اضطر لتناسي هذه النظرة وقبول كل مساعدة من أي جانب صدرت عنه. فرحب بوفود عرب المدينة الذين عطفوا عليه وأكرموه لما أنزل به المكيون من الاضطهاد والتنكيل)) [٤٨].

((وطال أمد النضال بينهم وبين مشركي مكة حتى استغرق ثماني سنوات نشرت خلالها جيوش المسلمين الرعب في شتى بقاع شبه الجزيرة مما حمل كثيراً من القبائل على اعتناق الدين الجديد... وانتهى الأمر اخيراً بفتح مكة، الذي يصّور الذروة التي آلت إليها قوة محمد. ففي هذا اليوم تطلع أهل المدينة للأخذ بثأرهم من هؤلاء التجار المتكبرين الساخرين بهم.. غير أنَّ احلامهم تلاشت إذ أمر الرسول قواده باصطناع الرأفة البالغة، وساعده المكيون - صامتين - في تحطيم أصنامهم المنصوبة في الكعبة.. تعبدها شتى القبائل التي اعترفت بمحمد رسولاً لله، والغيظ يملأ قلبها، وكتمت في نفسها الانتقام إلى يوم تسنح لها فيه الفرصة من هؤلاء الأجلاف : يهود المدينة (!!) الذين دنسوا الشرف بغزوهم لبلدهم. وبعد أنَّ تم فتح مكة رأت القبائل الباقية على شركها عدم جدوى المقاومة واعتنقت الإسلام، تحت عامل الخوف من حرب مهلكة، إذ كان قواد محمد يدعون للدين حاملين القرآن في يد والسيف في أخرى)) [٤٩].

فلهاوزن : ((ولم يبق الإسلام على تسامحه - بعد بدر - بل شرع في الأخذ بسياسة الإرهاب في داخل المدينة، وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول.. أما اليهود فقد حاول أنَّ يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد. وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل

الجماعات اليهودية، أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة حيث كانوا يكونون جماعات متماسكة كالقبائل العربية، وقد التمس لذلك أسباباً واهية...)) [٥٠].

مركوليوث : ((عاش محمد هذه السنين الست، بعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة. فقد كان هناك على أية حال سبب ما - حقيقياً كان أم مصطنعا - يدعو إلى انتقامه منهم، إلا أنَّ خيبر التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد لم يرتكب أهلها في حقه ولا في حق أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعا، لأن قتل أحدهم رسول محمد لايصح أنَّ يكون ذريعة للأنتقام.. وهذا يبين لنا ذلك التطور العظيم الذي طرأ على سياسة محمد، ففي أيامه الأولى في المدينة أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين، لكنه الآن (بعد سنة ٦ هـ) أصبح يخالف تماماً موقفه ذاك. فقد أصبح مجرد القول بأن جماعة ما غير مسلمة يعتبر كافياً لشن الغارة عليها... وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التي سيطرت على نفس محمد، والتي دفعته الى شن غارات متتابعة، كما سيطرت على نفس الإسكندر من قبل ونابليون من بعد... إن استيلاء محمد على خيبر يبين لنا إلى أي حد قد أصبح الإسلام خطراً على العالم)) [٥١].

نولدكه : ((لو أنَّ القبائل العربية استطاعت أنَّ تعقد بينها محالفات حربية دقيقة ضد محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينية، والذود عن استقلالهم، لأصبح جهاد محمد ضدهم غير مجد، إلا أنَّ عجز العربي عن أنَّ يجمع شتات القبائل المتفرقة قد سمح له أنَّ يخضعهم لدينه، القبيلة تلو الاخرى، وأن ينتصر عليهم بكل وسيلة، فتارة بالقوة والقهر، وتارة بالمحالفات الودية والوسائل السلمية)) [٥٢].

((كان النبي لايتحرج في اختيار الوسائل التي تضمن له النجاح والظفر في الوقت الذي كان خيالياً، ولم يكن له سلطان على خياله وعواطفه)) [٥٣].

بندلي جوزي[٥٤] : ((لاشك أنَّ النبي العربي لم يقصد بأقواله وأفعاله في مكة والمدينة إلى أنَّ يستأصل أسباب الشر الاجتماعي، ويقتل جميع جراثيمه، كما يحاول أنَّ يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على أختلاف اسمائهم ونزعاتهم، بل كانت غايته الكبرى أنَّ يخفف من وطأة تلك الأمراض على بعض طبقات الناس ممن خلقوا بعد قسمة الأرزاق أو وقعوا في الفقر والرق لأسباب لم يقو على مقاومتها، والا فلو أراد أنَّ يقتل جراثيم الامراض الاجتماعية

كلها لكان لجأ بعد أنَّ أصبح صاحب الأمر والنهي في جزيرة العرب، الى وسائل غيــر تلــك التي ذكرناها. وما مثل النبي من هذا الوجه إلا كمثل سائر الأنبياء الذين سبقوه، ولاسيما أنبياء بني إسرائيل، أي أنه فضّل استعمال الوسائل الأدبية - إلا فيما ندر مــن الظــروف - علــى غيرها من الطرق التي لجأ اليها بعصرنا بعض مصلحي وسياسيي أوربا كلينين وموســوليني وغيرهما.. وعليه يمكننا أنَّ نقول إن محمدا أجاد في وصف الأمراض الاجتماعيــة العربيــة وتعدادها أكثر منه في علاجها واستئصال جراثيمها..)) [٥٥].

مونتكمري وات : ((إن زيارة محمد لحراء، وهو جبل قريب مــن مكــة، بــصحبة عائلته أو بدونها، ليست مستحيلة، ويمكن أنَّ يكون ذلك للفرار من أتون المدينة خــلال فــصل الصيف للذين لا يستطيعون التوجه الى الطــائف، ويمكــن للتــأثير اليهــودي - المــسيحي ولا سيما مثل الرهبان، أو تجربة شخصية لمحمد، أنَّ يكون قد أثــار فيــه الحاجــة للخلــوة والرغبة فيها)) [٥٦].

((تعتبر كلمة ناموس عادة مشتقة من كلمــة Nomos اليونانيــة، وهــي تعنــي اذن (الشريعة) أو (الكتب المقدسة)، وهذا يتفق تماماً مع ذكر موسى. وقد أبدى ورقة ملاحظة، بعد أنَّ اخذ محمد يتلقى الوحي، وهي تعني أنَّ مانزل علــى محمــد مماثــل لكتــب اليهــود والمسيحيين المقدسة. كما أنَّ محمداً سمع مايوهمه بأنه مؤسس أمة ومــشرع لهــا. وإذا كــان محمد، كما يبدو، مترددا بطبعه، فإن هذا التشجيع بأقامة بناء ضخم على تجاربه يرتدي أكبــر أهمية لتطوره الداخلي.. وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيرا بأفكار ورقة)) [٥٧].

وفي مكان آخر من كتاب وات نقرأ هذه العبارات ((ادعى كايتاني أنَّ سكان المدينــة رضوا بمحمد ككاهن أعلى فقط لأنهم كانوا بحاجة الى الاستقرار الداخلي في المدينة، ولــيس لأنهم يقبلون تعاليم القرآن بأكملها. وبعضهم كانوا مسلمين حقا.. ومن الممكن ايضاً أنَّ يكــون محمد، نوعا ما، حاملاً للأفكار اليهودية المسيحية في القرآن، بألفاظ عربية جاهلية، ولهذا اساء فهمها - كما يقول كايتاني - ولكن المدنيين الذين كانوا يدافعون عن محمــد كــانوا يفهمــون مبادىء الإسلام الأساسية ويؤمنون بها. فالله خالق الكون وسيّد العالم، وهو الحكم فــي اليــوم الأخير، ومحمد حامل رسالة الله إلى العرب. وكان المسلمون يقيمــون مجتمعــا جديــدا فــي المدينة، وكان هذا المجتمع يتطلب أساسا فكريا واضحا ومحددا. ومن الممكن أنَّ يكون القليــل

من المسلمين في المدينة يدفعه حماس ديني قوي ولكنهم كانوا جميعا مؤمنين بالروابط الدينية ليشاركوا في بناء مجتمع يقوم على هذه الروابط بدلاً من روابط النسب)) [٥٨].

ويحضرنا، ونحن نعرض لتناقض المستشرقين في مسألة الأخذ عن الصحف القديمة، قول جواد علي بهذا الصدد ((لا أهمية ولا معنى لقول شبرنكر أنَّ محمداً قرأ وأخذ من مصدر آخر هو (صحف إبراهيم) المذكورة في القرآن الكريم. وقد ردّ على هذا الرأي نولدكه بقوله (لو فرضنا أنَّ محمداً أخذ من هذه الصحف ونسبه لنفسه وادعاه على أنه وحي أوحى الله به إليه، لو فرضنا ذلك، فإن من غير المعقول عندئذ ذكر محمد لتلك الصحف في القرآن، لأن ذكرها فيه معناه إرشاد الناس إلى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه، ولهذا لايعقل الأخذ بكلام شبرنكر))) [٥٩].

ونمضي مع وات لنراه يقول في مكان آخر ((لم يكن الإسلام.. حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيليين صعاليك حطوا رحالهم في مكة، ولم يستمد الإسلام قوته من رجال الدرجة السفلى من السلم الاجتماعي بل من أولئك الذين كانوا في الوسط وادركوا الفرق بينهم وبين أصحاب الامتيازات في الذروة فأخذوا يقنعون أنفسهم بأنهم أقل أمتيازاً منهم فنشأ صراع ليس بين الملاكين والمعوزين، بل بين الملاكين والذين هم أقل منهم)) [٦٠].

((كان الاشخاص الذين اتصل بهم محمد (في الطائف)، وهم عبد ياليل واخوته، ينتمون لقبيلة عمرو بن عمير المنتمية للاحلاف، فكانوا بذلك انصار قريش، وربما راود محمداً الأمل بأستمالتهم اليه بالتلويح لهم بتحريرهم من سيطرة مخزوم المالية) [٦١].

* * *

ونتوقف عن سرد هذه (النماذج) للأخطاء (الموضوعية) التي قادت اليها الثغرات العديدة في (مناهج) البحث الأستشراقية لسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فهي كثيرة لايحصيها عد.. وننتقل - من ثم - لكي نعرض لهذه السيرة نفسها، وفق (منهج) أقرب ما يكون (لروح) هذه السيرة و (بنيتها) و (معطياتها) و (أرضيتها التاريخية) و (مصادرها الأساسية).

أستميح القارىء عذراً إن قصرت أو اخطأت، وانتظر الفرصة التي يتيحها لي لتلافـــي التقصير وتسديد الخطأ.. فكل بني آدم خطأء، وخير الخاطئين التوابون.. وصدق رسول الله.